جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي

مقياس العلاقات بين الغرب الاسلامي والعالم المسيحي

المستوى : ثانية ماستر تاريخ الغرب الاسلامي

الدكتور سليم حاج سعد

المحاضرة رقم 03

الزواج المختلط في الأندلس وآثاره

أولا : مناقشة ظاهرة الزواج المختلط

تناول عدد من المؤرخين البارزين في مجال الدراسات الأندلسية قضية الزواج المختلط بين المسلمين من جهة والنساء النصرانيات من جهة أخرى، وفي هذا السياق يمكننا طرح التساؤل التالي : هل دخل الفاتحون المسلمون عربا كانوا أو بربرا الأندلس أفرادا دون أسر مما دفعهم إلى الإقبال على الزواج المختلط من أسبانيات ؟ أم كانوا بصحبة زوجاتهم وأولادهم ؟ وفي الحالة الثانية على نفس الطريقة التي كانت في الحروب والمعارك التي خاضها العرب ضد الفرس، أو حملة معاوية على جزيرة قبرص سنة 28 هـ حيث كانوا بصحبة أسرهم.

وحول هذا الإشكال انقسم الدارسون إلى قسمين رئيسيين، قسم يرى أن الفاتحين نزلوا الأندلس فرادى دون زوجاتهم وأولادهم، وقسم آخر يرى أنهم انتقلوا برفقة أسرهم.

أ – بالنسبة للفريق الأول والذي يرى أن الفاتحين انتقلوا فرادى دون أسرهم، ثم ما أن لبثوا بعد ذلك أن تزوجوا بنساء الأندلس الأصليين أو اتخذوا الجواري منهن، وهو ما أنتج لنا فئة عرقية جديدة ليست عربية ولا بربرية خالصة، ومن أبرز الدارسين من أصحاب هذا الطرح نجد كلا من الدكتور حسين مؤنس والمستشرق ريبيرا، ومما يؤيد رأي هذا الفريق هو ما أشار إليه مستغربا الفقيه الظاهري ابن حزم حول نساء أحد القبائل التي لا تتكلم باللطينية، وهو الأمر الذي يؤكد أن استعمال هذه اللغة كان شائعا في الأندلس في زمانه، وفي هذا السياق يذهب المستشرق الإسباني ريبيرا إلى القول بغرابة اتقان النساء الأندلسيات لهذه اللغة وهن في مجتمع اسلامي محافظ، حيث تبقى المرأة على الأغلب في دارها، وفي هذا السياق يذهب إلى القول بأن هؤلاء النساء غير عربيات في الأصل، وهو نفس المنحى الذي يؤيده الدكتور حسين مؤنس في أن غالب الفاتحين من عرب وبربر تركوا نساءهم وتزوجوا من نساء الاندلس الأصليين.

ب – القسم الثاني من الدارسين يذهبون إلى أن الفاتحين للأندلس دخلوا جماعات أسرية مصحوبين بزوجاتهم وأولادهم، وفي المقابل يضعون الرأي الأول حول القضية موضع الخطأ، حيث لا يتم انصهار بين الغالبين والمغلوبين، ومن أبرز رواد هذا الرأي نجد المستشرق "جيشار"، حيث لا يعتبر الرأي الأول يتفق مع المنطق ولا مع عادات العصر الوسيط، ومستندا أيضا إلى كون العرب والبربر حافظوا لمدة أكثر من القرنين على تنظيماتهم الاجتماعية القبلية وذلك في مواجهة القبائل الأخرى المعادية لهم، أو حتى في مواجهة السلطة المركزية، فيقول جيشار عن هذا: "أنه لا يمكن تفسير هذه السلوكيات إلا على أساس وجود روابط اجتماعية قبلية قوية للغاية بين هذه القبائل. ومن الطبيعي أن التنظيمات القبلية في الأندلس لم تكن تقوم على الذكور فحسب"، بل ويذهب إلى الاستدلال بإعطاء عدد من الأمثلة في التاريخ الاسلامي في حالات اصطحاب المسلمين الفاتحين لأسرهم وزوجاتهم، مثل

إنشاء مدينة البصرة، أو حتى في عمليات الفتح الأولى لبلاد المغرب، وهو الأمر الذي يشير إليه ابن عذاري بشكل مباشر في غزو افريقية سنة 27 هـ حين خرج المسلمون في جيش كثيف فيهم مروان بن الحكم، وجموع هائلة من بني أمية، وبشر كبير من بني أسد بن عبد العزى وعبد الله بن الزبير في عدة من قومه وغيرهم من المهاجرين، وخصص عثمان بن عفان لهذه الحملة ألف ناقة لحمل ضعفاء المسلمين، وفتح بيوت السلاح التي كانت للمسلمين، ففي العبارات السابقة إشارات واضحة إلى لوجود أسر وصغار وضعاف وهو ما يثبت عكس ما ذهب إليه أصحاب الطرح الأول.

كما تتعدد الأمثلة التي يستند إليها جيشار لتأكيد طرحه من خلال المصادر التاريخية والتي تبين بما لا يدع مجالا للشك أن المسلمين بنسب معينة كانوا يصطحبون أسرهم معهم في حملات الفتح التي كانت في بلاد المغرب.

وللوصول إلى شيء من الحقيقة حول هذا الجدل، واستنادا إلى أدلة كلا من الفريقين نجد أنه من المنطقي أن ظاهرة زواج الفاتحين العرب والبربر من أهل البلاد الأصليين كانت متزامنة مع ظاهرة جلب الأسر معهم، وفي الغالب يكون تقبل المسلمين للمبدأ الإسلامي لتعدد الزوجات وتطبيقه في أرض الواقع قد ساهم في هذا المنحى، أضف إليه إباحة الاسلام اتخاذ الجواري والإماء.

وإذا أخذنا الموضوع من جهة أخرى فإننا سنجد أن عملية التنقل لكل الفتوحات التي خاضها المسلمون طيلة تاريخهم كانت فتوحات برية، تسهل فيها وفق ضوابط ذلك العصر عملية نقل الأسر ضمن الفتوحات، أما في وضعية فتح الأندلس فإن الأمر مختلف بشكل كبير جدا، حيث أن عملية الفتح فيها كانت بحرية، فإذا أضفنا الإشكالية التاريخية التي رافقت عملية فتح الأندلس في قضية عدم ملكية المسلمين للسفن أصلا، فإن كل هذا يوصلنا إلى الإقرار بصعوبة نقل الأسر في عمليات الفتح مع ما يصاحبها من زيادة في التكاليف والخطورة

المطلقة في حالة الهزيمة، ومن ناحية أخرى فإن طبيعة الدين الاسلامي التي تحمل الرسالة العالمية، حيث يدعوا الاسلام إلى عدم التعصب للأجناس، إضافة إلى اعتبار النصارى أهل ذمة ومن أسلم منهم اكتسب كل حقوق المسلم العربي أو البربري الفاتح، نصل إلى استنتاج مفاده أن غالبية جيوش المسلمين المتتابعة لفتح الأندلس كانت فرادا بشكل كبير، وهنا تكون نسبة زواج العرب والبربر الفاتحين أو الوافدين بعد ذلك على الأندلس من نساء ذات أصل اسباني أكثر إن لم نقل غالبة، وبالتالي يكون رأي الفريق الأول حول هذه القضية أقرب إلى الغلبة، مع الإشارة إلى أننا لا نستطيع النفي التام لرأي الفريق الثاني.

ثانيا : مصادر الحصول على زوجات من أصل قوطي:

في الغالب أن الجيل الفاتح للأندلس دخل هذه البلاد الغريبة رجالا دون نساء، فمن الضروري أن يتخذوا من نساء وبنات البلاد المفتوحة زوجات وأمهات ولد، فما ان انتهت عمليات الفتح حتى أخذ الفاتحون يرتبطون من بنات المدن المفتوحة، حيث قدرت المصادر التاريخية عدد النصرانيات اللائي ارتبطن بالمسلمين بـ 30 ألف نصرانية، وأمام هذا الرقم الكبير نجد من المستحيل أن يكون الزواج من نصرانيات مقتصرا فقط على السبي فترة الفتح، وإنما كان هناك عدد آخر من المصادر يكون قد شكل هذا العدد، وأهم هذه المصادر:

1 - سبايا الحروب :

وهو المصدر الأكبر من عمليات الزواج المختلط في الأندلس فترة الفتح أو باقي الفترات، حيث تكون إما زوجة أو أم ولد، فيذكر صاحب كتاب "نبذة من أخبار فتح الأندلس" أن خيار ما أصابه طارق بن زياد ومن معه فترة الفتح هو السبي من النساء، وفي الغالب يكثر العدد على حسب قوة حكام وأمراء الأندلس، حيث في فترات القوة تكثر

الصوائف والشواتي التي يكون من نتاجها كثرة السبي، وهو الأمر الذي نلاحظه بجلاء مثلا فترة عبد الرحمن الناصر والذي على قول المقري : "...دوخ ملوك الفرنجة، وأفزع قلوبهم، وسبى نساءهم، ولم يبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس، وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة..."، وكذلك الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، والذي قاد أكثر من خمسين غزوة ضد النصارى، فكثر السبي من النساء حتى أطلق عليه أهل الأندلس اسم "جلاب"، وهذه الكثرة أدت إلى رخص أثمانهن، وفي هذا المقام يذكر المراكشي أنه " قد نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة، وكانت ذات جمال، فلم تساو أكثر من عشرين دينارا"، فأقبل الناس على الزواج من سبايا النصارى تاركين بنات الأحرار، وهو ما دفع والد كل فتاة حرة إلى المغالاة في تجهيز ابنته بأفخر وأغلى المتاع، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة، لهذا شكلت السبايا مصدرا مهما من مصادر الزيجات المختلطة بين المسلمين والنساء من القوط.

2 – تجارة الجواري :

ينعكس هذا المصدر مباشرة كنتيجة للمصدر الأول والذي هو الغزو، حيث كل الجواري اللائي يبعن في الأسواق هن نتاج الحروب التي كانت تدور بين نصارى أوربا الغربية مع جيرانهم من الصقالبة، حيث الاختلاف في الدين، وبإمكانية الشراء تمت عملية تداول الجواري على نطاق واسع في الأندلس حتى كان نصيب العامة منها نصيبا كبيرا، فبلغ عدد نساء قصر الزهراء مثلا 6314 امرأة، ورغم ذلك لا نستطيع ان نتصور أن عملية البيع والشراء كانت تتم بأبسط الأشكال، وإنما كانت تتم بحضور كاتب العقد والشهود، ويتحدد ثمن الجارية دائما على أساس الجمال والعلم، حيث لا أثر هنا للحسب والنسب، فالجمال كان السبب الأساسي لاختيار الجارية عند الأندلسيين عامتهم وخاصتهم، أما العلم فيكون في المقام الثاني في تحديد ثمن الجارية، فالجارية المتعلمة أغلى ثمنا من الجارية الأمية، وفي هذا

الصدد ذكر عن الفقيه والمؤرخ ابن حزم الظاهري أنه قد تلقى علومه الأولية في بيته، حيث طلب والده إلى بعض جواريه أن يقمن بتلقينه الأشعار والأخبار وهو ما يقوله عن نفسه : "وهن علمنني القرآن، ورويننني كثيرا من الأشعار، ودربنني فن الخط..".

من خلال ما سبق نستطيع القول بأن أسعار الجواري تزداد ارتفاعا كلما تعددت صفات الجارية واتسعت ثقافتها، فيكون الجمال هو الأصل الأول في الاختيار، ويأتي بعده العلم من حفظ للأخبار ورواية للشعر، كما توجد صفات أخرى أثرت في السعر مثل إجادة العزف والغناء والرقص، فدخلت الجارية في صلب المجتمع الأندلسي عامته وخاصته، حيث بمرور الوقت تتحول الجارية إلى أم ولد في حالة الإنجاب، فكانت بهذا الجارية أما لكثير من الملوك والأمراء البارزين، حيث كان لهن دور كبير في أمور الحكم والسياسة، مثل صبح البشكنسية زوجة الحكم المستنصر.

3- المصاهرة :

منذ بداية الفتح الاسلامي للأندلس حدث التمازج والاختلاط والتعايش مع أهل البلاد الأصليين، وذلك امتثالا للتعاليم الاسلامية التي تحفظ للإنسان حقوقه العامة مهما كان دينه، هذه الوضعية دفعت بأعداد كبيرة من النصارى إلى الإسلام فكانت المصاهرة والتزاوج عنوانا هاما للظاهرة الأندلسية، فكان عبد العزيز بن موسى بن نصير من أوائل الذين تزوجوا من اسبانية، وذلك حين تزوج من امرأة لذريق في اشبيلية، وسار على نفس المسار عدد كبير بعده، وعليه لم يكن من أمراء بني أمية من كانت أمه حرة أصلا، إذ كانت أمهاتهم من نصارى الشمال أو من البربر أو من الرقيق الصقلب، إلى درجة أنه وفي العديد من الحالات التي جعلت من خلفاء بني أمية أقارب لملوك النصارى من حيث الأم.

وفي المقابل كان الزواج العكسي متوفرا أيضا حيث تزوج الإسبان من أندلسيات مسلمات، خاصة من فئة المولدين، ومثال ذلك المصاهرات التي تمت بين أسرة بني قى من المولدين مع بني حكام نبرة في الشمال الأندلسي.

ثالثا : مبررات اتخاذ الاسبانيات زوجات أو أمهات أولاد للأندلسيين

1 – إباحة الاسلام اتخاذهن : أباح الاسلام للرجل اتخاذ الأزواج إلى أربع ومن الجواري ما شاء، وهو الموضوع الذي فصل فيه العديد من الباحثين المتخصصين في الفقه مبررين أوجهه، لهذا أكثر الأندلسيون في هذا الباب بشكل ملفت، فعبد الرحمن بن أبي عامر الملقب بشنجول اتخذ 70 من الجواري كن يعشن تحت سقف واحد، كما أن عبد الرحمن بن الحكم الثاني كان له عدد كبير جدا من الجواري، هذا بالنسبة للمرأة الجارية، أما بخصوص المرأة الحرة من غير المسلمين، فإن الاسلام على مذهب الامام مالك أباح للرجل المسلم الزواج من المرأة النصرانية أو اليهودية على اعتبار أنهما من أهل الكتاب.

2 – الجمال : من بين الأسباب التي أدت إلى اتخاذ المسلمين في الأندلس الإسبانيات زوجات وأمهات أولاد هو ما تتمتع به هذه الأخيرة من سمات الجمال مقارنة بغيرها، لذلك نجد ابن الخطيب يصف لنا حريمهم وصفا دقيقا حين يقول : " وحريمهم جميل موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن" وهي الصفات التي حسب ابن الخطيب لا تتوفر عند العرب، لهذا نجد طارق بن زياد في الخطبة المنسوبة إليه، يغري جنده بفتيات القوط على أساس أنهم إذا انتصروا سيظفرون بهن : " وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان"، وعليه استكثر أمراء بنو أمية من نساء النصارى حتى تغيرت ملامح أبناءهم، فأصبحت مثلا شقرة شعورهم غالبة عليهم، فلا تجد أميرا من أمراء بني أمية ابن حرة، ولا

غرابة أيضا أمام هذه الوضعية أن تجد شاعرا من شعراء بني أمية وهو مروان بن عبد الرحمن قد خصص أغلب شعره على النساء ذوات الشعر الأشقر.

3 – **علمهن** : ذكرنا سابقا أن من محددات سعر الجارية في الأندلس بعد الجمال يكون العلم، حيث لا وجود لما تعارف عليه المسلمون من الحسب والنسب، فكان من بين الجواري الشاعرات والأديبات والمغنيات والمتفقهات اللواتي يروين الحديث، وأحسن مثال على ذلك الجارية عابدة وهي جارية سوداء من رقيق المدينة تروي من الحديث عشرة آلاف حديث، وعلى الرغم من أنها لا تتصف بالجمال، إلا أن حبيب بن دحون أعجب بعلمها وفهمها فاتخذها جارية له، حيث ولدت له بشر الذي صار هو الآخر محدثا في أيام الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني.

كما قد أشرنا سابقا إلى ابن حزم الفقيه والمؤرخ الظاهري الذي ذكر لنا أنه تعلم في صغره صنوف العلوم على يد جواري القصر، وهنا تفنن الأمويون في قصورهم في اختيار الجواري البارعات في شتى الفنون من غناء وموسيقى وشعر تلبية لرغبة صاحب القصر الأموي.

رابعا : نتائج الزواج المختلط في الأندلس

1 – **ظهور فئة المولدين** : من بين المشكلات التي تواجه الخوض في هذا الموضوع هو ندرة المعلومات التاريخية التي تؤصل له، حيث أعرض أغلب من أرخ للأندلس عن ذكر آثار الزواج المختلط، ورغم ذلك فإن من أكبر النتائج ظهور فئة المولدين، والذي كان حصيلة الزواج بين العرب والبربر من جهة ونساء النصارى من جهة أخرى، إلا أنهم كانوا على الديانة الاسلامية، وبذلك يكون هناك فرق كبير بينهم وبين "الأسالمة" أو "المسالمة"، حيث هذه الأخيرة عناصر إسبانية أسلمت مع الفتح الاسلامي أو بعده، كما يختلفون عن المستعربين الذين حافظوا على ديانتهم النصرانية مع تعريب لسانهم، وهذا الأمر من المواضيع التي استشكلت عند كبار

الباحثين في التاريخ الأندلسي فحدث لهم الخلط بينهم، وربما يعود هذا الخلط إلى أن كل هده الفئات الاجتماعية لم تكن تعيش حياة منفصلة عن بعضها، وإنما كانت مندمجة، فمبرور الوقت يصعب التفريق بين كل هذه الفئات لما يحدث من تزاوج وانتقال بينها.

وبمرور الوقت أصبح المولدون يشكلون الجمهرة الغالبة من سكان الأندلس، رغم اختفاء هذا المصطلح في نهاية القرن الثالث الهجري، مما يبين الاختلاط الكبير للسكان وبروز تسمية الأندلسيين بشكل واضح كعصبية جديدة للمكان أكثر منها للأجناس، ولم يعد نسب الأم منقصة أو مدعاة للخجل داخل المجتمع، ويكفي أن نتصفح كتب التراجم التي جاءت تباعا حتى تصادفنا الكثير من أسماء الأعلام من ذوي الأصل الاسباني مثل ابن لب وابن فرتون وابن مارتين وابن القوطية وشنجول وابن غرسية وابن شبطون والأقشتين، وفي المقابل احتفظ الكثير من المولدين بأسمائهم الإسبانية أمثال بنو أنجلين وبنو شبرقة وبنو الجريج وبنو القبطرية وبنو مردنيش وبنو غرسية وبنو زدلف.

ومما يبين بشكل عميق مستوى التغير الذي حدث في المجتمع الأندلسي في العصور المتأخرة تصفحنا للوثائق العربية الغرناطية ، حيث نلاحظ أن المجتمع الغرناطي لم يعد يبحث كثيرا عن إرجاع نسبه إلى الأسر العربية العريقة مثلما كان في عهود سبقت، وإنما أصبح مجتمعا أندلسيا أصيلا، ونلاحظ ذلك من خلال أسماء وألقاب أكثرهم، فلا نجد فيها الصفة المشرقية حاضرة بكثرة، فهم ينسبون أنفسهم بفخر إلى الأسر الأندلسية المسلمة العريقة، فأصبحت الألقاب تنسب إلى المدن والنواحي بدل الأصول العربية، مثل الطرطوشي والحامي والمالقي والغرناطي وغيرها من أسماء الحواضر المشهورة، فالأندلسيون أصبحوا أشبه بعرقية جديدة ناشئة تكاملت في فترات وتصادمت في فترات أخرى، لهذا نجد الدكتور حسين مؤنس يصفهم بأنهم كانوا من أوفر العناصر البشرية نشاطا وأكثرها تلاؤما مع ظروف الحياة في شبه الجزيرة الأيبيرية وهو ما يحدث عادة عند تنوع الأعراق

وفي هذا الموضوع تلفت انتباهنا نقطة غاية في الأهمية، وهي تعتمد على ما ذكرناه سابقا من أن كل أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس كانوا لأمهات غير عربيات، بل اسبانيات، ومع هذا لا نسمع أحدا من مؤرخي الأندلس يصفهم بالمولدين، رغم أنهم أبناء تلك السبيات ، مع العلم أن التقيد بالموضوعية يلزمهم ذلك، وهنا ربما يعود سبب عدم وصفهم في المصادر التاريخية بالمولدين إلى الخوف ، فلم يوصف هشام المؤيد بالله بأنه مولد، مع العلم بأنه تجري في عروقه الدماء القوطية، ومن ناحية أخرى إذا أدخلنا أسلوب الحساب في العملية فإنه وفق ما يذهب إليه كثير من المؤرخين المستشرقين سنجد أن العرب الذي دخلوا الأندلس في البداية قد ذابوا في الجنس الأسباني، حتى وكأنه لم يعد للواحد منهم في عروقه سوى قطرات قليلة من الدم العربي تجري مع دمه الأسباني، وفي هذا الصد قام المستشرق الإسباني "خوليان ريبيرا بعملية حسابية على الأسرة الأموية في الأندلس، وصل من خلالها إلى نتائج كان أهمها : أن عبد الرحمن الداخل كان يحمل نصف دم عربي فقط، لأنه كان من أم غير عربية، وكذلك ابنه هشام الرضى لا يحمل إلا مقدار الربع من الدم العربي، وذلك لأن أمه كانت أيضا غير عربية، وبهذا الشكل تضعف نسبة الدم العربي تدرجا في الأسرة الأموية، وتتضاعف في المقابل نسبة الدم غير العربي، فمثلا الحكم الربضي يتوفر على الثمن من الدم العربي، أما عبد الرحمن الثاني فيكون نصيبه جزء من 16 جزء، أما الأمير محمد ليس له سوى جزء من 32 جزء ، أما المنذر بن محمد فله جزء من 64 جزء، وهكذا يصل ريبيرا إلى تناقص نسبة الدم العربي عند الأمراء والخلفاء الأمويين حتى يصل إلى هشام المؤيد بالله، فيجد أن نصيبه من الدم العربي إلا جزء من 1420 جزء، وهي عملية منطقية من الناحية الحسابية، رغم من تحمله من شيء من التظليل، حيث أننا لا نستطيع الجزم بهذا الشكل من ذوبان الدم العربي في الاسبان على اعتبار أنه ليس من المضمون أن كل تلك النساء الاسبانيات كن دائما وافدات جدد على الأندلس، أي أنهن من دم اسباني خالص، فالأكيد

أن عددا منهن كن يحملن نصف الدم العربي أي مولدات من أب عربي، وكذلك سنجد أن عددا من العرب والبربر قدموا إلى الأندلس في شكل أسر، أو أن القدوم إلى الأندلس لم يكن حكرا على الرجال من غير النساء، كما أنه ليس من المعقول أن نتصور أن عملية الزواج المختلط كانت تنتج لنا فقد ذكورا دون الإناث، ليتزوجوا دائما من أسبانيات.

خلاصة الكلام أنه حدث اختلاط كبير في الأجناس الأندلسية بين العرب والبربر والأسبان، إلا أن النزعة العربية لم تضمحل ، بل كانت الثقافة العربية واللغة والحضارة والموروث مشرقي في الأساس يحمل اللمسة الأندلسية.

ومن أهم آثار فئة المولدين على المجتمع الأندلسي هي سرعة انتشار الاسلام فيه، وهو يؤكد ان الاسلام لم ينتشر في اسبانيا النصرانية بحد السيف، ومن الآثار الإيجابية أيضا نبوغ العديد من الأسر المولدة في المجالات العلمية والسياسية، فكانت لهم الإضافة الكبيرة في ملامح الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس، وبدورهم كانوا ناقلين لحضارة المسلمين إلى أوربا بأكملها، هذا بالإضافة إلى انتقال عدد من الصفات الجمالية من الأسبان إلى الأندلسيين.

أما النتائج السلبية التي أدت إليها ظاهرة الزواج المختلط في الأندلس، فتتمثل في الشعوبية المولدة ، أي العنصرية لهذه الفئة، خاصة مع بروز الممارسات العنصرية من قبل بعض أمراء بني أمية، فأدت هذه الظاهرة في النهاية إلى هزات عنيفة في التاريخ الأندلسي كان من بينها ثورة ابن حفصون، وهذه الشعبوية هي التي لاحظها الدكتور أحمد مختار العبادي حتى وصل به الأمر إلى اعتبار كتابات ابن القوطية في كتابه "تاريخ افتتاح الأندلس" وما تحمله من نزعة عنصرية، بداية لظهور النواة الأولى لحركة الشعبوية في اسبانيا، وعلى نفس منواله ذهب الكاتب الأديب المولد أحمد بن غرسية في رسالته التي أوردها ابن بسام في كتابه الذخيرة، والتي فضل فيها العجم عن العرب صراحة.

2 – اختلاط التقاليد الشرقية بالتقاليد المحلية :

نتيجة لقلة عدد العرب والبربر الذين استوطنوا الأندلس مقارنة بالسكان الأصليين "القوط"، فإننا ندرك بدقة حجم الذوبان الاجتماعي الذي حدث لهم في هذه البلاد، رغم أن الطابع الغالب هو الثقافة العربية الاسلامية، هذا الأمر دفع بعدد من المستشرقين الاسبان إلى اعتبار أن الحضارة الأندلسية هي محلية أكثر منها تابعة للعرب أو البربر الوافدين على البلاد، إلى درجة اعتبار هذه الحضارة امتدادا للتراث السابق لفترة الفتح، وأن هذه الحضارة غربية وليست شرقية، وهذا بتقديمهم العديد من المبررات التي أخذوها من خلال الدراسات المعمقة والمقارنة للبنية الأندلسية، ومن الأمثلة التي قدموها في هذا الموضوع ما تعلق بالمرأة والشعر وتلك العقلية التي سادت حيث كانت تختلف تماما عن تلك التي سادت في بقية حواضر العالم الاسلامي بسبب تأثر الأندلسيين المولدين بالقيم الفكرية والأخلاقية للمجتمع، هذا ناهيك عن الدور الذي لعبته المرأة في المجتمع الأندلسي والذي يفوق بشكل كبير الأدوار التي لعبتها نظيرتها في بلاد المشرق الاسلامي، حيث تميزت المرأة الأندلسية بحرية كبيرة في التحرك والتنقل والعمل والعلم والثقافة، وكلها أدلة على أن دخول المسلمين إلى الأندلس لم يحدث ذلك التغيير الجذري في البناء الاجتماعي والفكري مقارنة مع ما أحدثه في باقي المناطق المفتوحة مشرقا ومغربا، وحتى لا ننساق وراء آراء الكثير من المستشرقين في موضوع حرية المرأة الأندلسية، فإنه رغم تلك الحرية التي ذكرتها المصادر التاريخية، فإننا لا نستطيع أن نجزم بأنها كانت تمس عموم المجتمع في المدن والأرياف، كما لا نستطيع الجزم بأن هذه الحرية قد مست بدرجات كبيرة المرأة الحرة، على اعتبار أن الجارية في البداية على الأقل لا تمثل عمق المجتمع، كما أن المرأة الأندلسية لم تتخلى عن الأطر العامة للشريعة الاسلامية، وإنما كانت ملتزمة بها مع بعض الحريات المكتسبة.

وفي الغالب تتعدد الأمثلة التي تثبت امتزاج العادات والتقاليد المشرقية والقوطية المحلية في المجتمع الأندلسي، فنجد مثلا ظاهرة الاحتفال بالأعياد في الأندلس، حيث تشتمل أعيادا إسلامية وأخرى غير إسلامية، فنجدهم يحتفلون بعيد الفطر والأضحى وعاشوراء والمولد النبوي الشريف، إضافة إلى احتفالهم بعيد النيروز ذو الأصل الفارسي، حيث يتفننون في صناعة الحلوى فيه ويتبادلونها، إضافة إلى ذلك احتفلوا بعيد العنصرة أو عيد المهرجان، وعيد الميلاد خاصة الليلة التي تسبق العام الجديد والتي تسمى الليلة العجوز، واحتفلوا كذلك بخميس العهد "أفريل" والذي كانت تؤكل فيه المجبنات الحارة.

كما كان يوم الأحد يوم عطلة في الأندلس للدوائر الرسمية التابعة للسلطة، وهذا الأمر يبين مدى التعايش الذي شهدته الأندلس بين كل العناصر، وأن المسلمين لم يتعصبوا لثقافتهم، بل تعايشوا وتأقلموا مع النصارى الموجودين في البلد، كما أدخل المغني زرياب العديد من العادات والألعاب المشرقية كالشطرنج مثلا ، والتي بدورها انتقلت إلى بلاد الغرب المسيحي، ومن العادات النصرانية الغربية كذلك في المجتمع الأندلسي هو اختلاط النساء بالرجال في شتى المناسبات.

3 – انتشار اللغة الرومانسية (اللطينية) :

أثر الزواج المختلط في الأندلس على لغة التخاطب اليومية تأثيرا كبيرا جدا، رغم أنه ومن المنطقي أن في البداية كانت اللغة العربية الفصحى هي اللغة المتداولة، وهي اللسان الحضاري في الأندلس على مدى تاريخها الاسلامي، وهي لغة الشعر والنثر والوثائق الرسمية، ولغة التعليم، فكان التمكن منها وإتقانها الشرط الأساسي في تولي مناصب الدولة، وهو الأمر الذي دفع بالمستعربين واليهود إلى تعلمها وإتقانها للترقي في المراتب الادارية، حيث بهذا تقربهم من أمراء وخلفاء الأندلس.

ورغم ذلك فقد تأثرت لغة التخاطب اليومية في الأندلس خاصة مع بروز فئة المولدين، والذين كان تأثرهم بلغة أمهاتهم الإسبانيات كبيرا جدا، فنتج عن ذلك ازدواجية في اللغة ميزت الثقافة الأندلسية، والتي تسميها المصادر التاريخية بـ "أعجمية أهل الأندلس" أو "اللطينية"، وهي اللهجة التي كان يتكلم بها الناس في حياتهم اليومية، ومن الأدلة التي تؤكد استعمال الأندلسيين لهذه اللغة على نطاق واسع، هو استغراب الفقيه والمؤرخ ابن حزم الظاهري من أهل "دار بلى" في شمل قرطبة في كون رجالهم ونسائهم لا يحسنون الكلام باللطينية وإنما يستعملون العربية فقط، وفي نفس الطرح أيضا تفيدنا الكثير من المصادر التاريخية بأن الخلفاء والأمراء وبقية الناس في الأندلس كانوا يجيدون استخدام لهجة اسبانية بجانب اللغة العربية على نطاق واسع، وخاصة في مواضع النزاع التي كانت ترفع إلى القضاة، وذلك عندما يمثل لديهم رجل نصراني لا يعرف العربية، فإن القاضي لا يجد إشكالا في مخاطبته باللغة التي يفهمها حتى يكون العدل قائما في أحكامه التي يصدرها،

وتصادفنا في الشعر الأندلسي العديد من الألفاظ الإسبانية وما يقابلها باللغة العربية إما بطريق مباشر أو عن طريق الكناية والاستعارة بصورة تدل على التمكن من اللغتين، كما أن فن التوشيح الذي كان من الفنون الأدبية الشعبية في الأندلس، والذي كان أكبر ثورة أدبية شهدتها الأندلس في تاريخها الأدبي أواخر القرن الثالث الهجري، كانت في الغالب كنتيجة طبيعية لتطور الحياة الاجتماعية في الأندلس الناجمة عن الاختلاط والتمازج بين العناصر المحلية والعناصر الوافدة، وكنتيجة أيضا لازدواج اللغة بين العربية والأعجمية وهذا حسب المستشرق ريبيرا.

وتميزت الموشحات بتحررها من القيود والقواعد التي تميز الشعر العربي التقليدي من حيث الالتزام بالقافية الموحدة، أما الأوزان فقد تغيرت تغيرا كبيرا لتتأقلم مع الألحان، هذا ناهيك عن التحرر من اللغة الفصحى إلى العامة أو حتى الأعجمية،

من خلال ما سبق، نخلص إلى أن الأندلس كانت نموذجا لتلاقي الغرب الاسلامي بالعالم المسيحي، فلم يقتصر اللقاء على علاقات سياسية أو ثقافية بين كيانات منفصلة أو حتى متجاورة، وإنما كان التلاقي بشكل اختلاط حقيقي مزج أطرافا من العالمين، كانت في الأصل مختلفة اختلافات جذرية بل وحتى وجودية من حيث العقيدة والجنس واللغة والعادات والتقاليد، ولكن الإسلام بتقبله للآخر وبثقافته مهما كانت مختلفة جعل من هذه البلاد نموذجا منفردا للتسامح والتعايش، حيث لم يستطع المسلمون عربا وبربرا التقوقع في قبيلتهم كنموذج من نماذج البنية الاجتماعية والثقافية، وإنما اضطروا أن يعطوا ويأخذوا من ثقافة وموروث البيئة المستقبلة لهم، فانفجرت الطاقات ابداعا في هذا المجتمع حتى فاقت ابداعات الأصل الذي وفدوا منه وهو المشرق، فكانت هذه الخلطة خيرا على البشرية في ضمان انتقال الثقافة العربية الاسلامية إلى الغرب المسيحي على اعتبار أنه وارث طبيعي وفقا للدور الحضاري الذي سنه الله على البشرية .